فطرية معرفة الله تعالى

د . أحمد معاذ علوان حقي *

التعريف بالبحث :

تناول هذا البحث جانباً مما أودع الله في فطر بني آدم ، ألا وهي معرفة الله سبحانه ، فذكر أولاً تعريف الفطرة والمعرفة ، وتكريم الله للإنسان ، وأورد في الفصل الأول الأدلة النقلية والشواهد على فطرية معرفة الله ، وذكر أسباب انتشار الإلحاد في الغرب ، وانحسار مذهب التطور التقدمي في أوربا ، وخلص إلى أن أول واجب على العبد هو الإقرار بالشهادتين إلا في حالات استثنائية عند من فسدت فطرته ، فأول واجب في حقه معرفة الله ، وبين في الفصل الثاني أن توحيد الله مركوز في فطرة الوجود ، أمّا الفصل الثالث فذكر أهم المؤثرات التي تفسد الفطرة ، وتناول جلاء الفطرة وإيقاظها ، وخلص إلى أنه ليس من سبيل إلى المحافظة على الفطرة وإرشادها إلا اتباع الوحي الإلهي .

* أستاذ مساعد بجامعة الشارقة كلية الشريعة والقانون . ولد في سوريا بقرية حلوة التابعة لمحافظة الحسكة سنة (١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م) . ونال درجة الدكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بمرتبة الشرف الأولى سنة (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) . وله عدة مؤلفات وبحوث .

المقدمة

الحمد لله على نعمه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى ولا تستقصى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الغر الميامين ، ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين .

أمّا بعد :

فإنّ معرفة الله تعالى هي حجر الأساس في جميع قضايا الإيمان ، وهي نقطة البداية ، ولأهميتها اقتضت حكمة الباري – عزَّ وجل – ورحمته بعباده أن جعل هذه المعرفة فطرية ، مشاعة للجميع ، لا تقتصر على فئة دون فئة ، فالجميع قد فُطروا على معرفته سبحانه .

ولأهمية الموضوع أحببت التوسع فيه بإيراد الأدلة النقلية والعقلية التي تؤكد هذه الحقيقة الناصعة ، والله أسأل العون والسداد إنّه نعم المجيب .

التمهيد

أولاً : تعريف الفطرة وتحديد معنى المعرفة :

الفطرة لغة : الشق جمعه فُطُورٌ ، وفَطَرَهُ يُفْطِرُهُ ويَفْطُرُهُ : شقّهُ ، فانْفَطَرَ وتَفَطَّر ، والناقة حلبها بالسبابة والإبهام، أو بأطراف أصابعه، والعجين اختبزه من ساعته ولم يخمِّرْه ، والأمر ابتدأه وأنشأه . وفطر الله الخلق يفطرهم فطراً: خلقهم، قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: ما كنت أدري ما ﴿ **فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [١] حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا ابتدأت حفرها. وذكر أبو العباس أنه سمع ابن الأعرابي يقول: أنا أول من فطر هذا، أي ابتدأه.

وجمع الفِطْرَة : فِطَرَات ، بفتح الطاء وسكونها وكسرها، وبالثلاثة روي حديث علي – رضي الله عنه – « وجبار القلوب على فِطَرَاتها » [٢] .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٤ .

(٢) راجع القاموس المحيط : مادة (فطر) ، وتاج العروس : مادة (فطر)، ومعجم مقاييس اللغة : مادة (فطر) ، و المفردات ص ٣٨٢ .

قال أبو البقاء: «الفطرة هي: الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول خلقته» [١].

إذاً فالفطرة: هي الصفة، أو جملة الصفات التي خُلِق، أو جُبِل عليها الخلق حين خلقهم الله تعالى.

أمّا الفطرة في الاصطلاح: فذهب أكثر أهل العلم إلى أنّ المراد بالفطرة الإسلام، قال الله تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [٢] «وهذه الفطرة أضافها الله إضافة مدح لا إضافة ذم، فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة» [٣]، ولما «أمر نبيه بلزومها فعلم أنها الإسلام» [٤].

وذهب جُلُّ علماء السلف إلى أن الفطرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ** ﴾ [٥] هي الإسلام [٦]. فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تُنتَجُ البهيمة بهيمة جمعاء [٧] هل تحسون فيها من جدعاء؟» [٨] ثم يقول أبو هريرة – رضي الله عنه – ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ [٩][١٠].

ولا شك أن القائلين بأن الفطرة: الإسلام، لم يقصدوا بذلك المعنى الاصطلاحي

---

(١) الكليات ص ٦٩٧.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٣) في السماع والرقص جمعه الشيخ محمد بن محمد المنبجي، مطبوع ضمن (الرسائل المنيرية) ٣/١٩٢.

(٤) فتح الباري ٣/٢٤٨.

(٥) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٦) التمهيد ١٨/٧٢.

(٧) جمعاء: أي سليمة من العيوب، مجتمعة الأعضاء كاملتها، فلا جدع بها، ولا كي. النهاية في غريب الحديث ١/٢٩٦.

(٨) جدعاء: أي مقطوعة الأطراف، أو واحدها. النهاية في غريب الحديث ١/٢٤٧.

(٩) سورة الروم: الآية ٣٠.

(١٠) رواه البخاري في صحيحه: الجنائز ٨٠، ٢/٩٨. ومسلم في صحيحه: القدر ٦، ح (٢٦٥٨)، ٤/٢٤٠٧.

المفهوم للإسلام من النطق بالشهادتين وإقامة الصلاة . . . إلخ ، وإنما قصدوا بذلك أن المولود فطر على أمور تهيئه للإيمان بالله، ومعرفته، وعبادته، وعنده القابلية لذلك ، والاستعداد ، والفطرة تستلزم الإقرار بالخالق ، ومحبته ، وإخلاص الدين له . وموجبات الفطرة ، ومقتضاها تحصل شيئاً بعد شيء إذا سلمت عن التشويه والتحريف، فالإسلام الفطري بمثابة الأساس، والشرائع المنزلة بمثابة البناء الذي يكمل الأساس.

ثانياً : تعريف المعرفة :

المعرفة لغة: من « عَرَفَهُ يَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً »، وعِرْفَانا وعِرْفةً، بالكسر، وعِرِفَّاناً، بكسرتين ثم فاء مشددة : علِمَه » (١) .

واصطلاحاً : « إدراك الشيء على ما هو عليه ، وهي مسبوقة بجهل ، بخلاف العلم ، ولذلك يسمى الحق تعالى : بالعالم دون العارف » (٢).

ثالثاً : الإنسان مخلوق مكرم :

« كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه، كرمه بخلقته على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان ! . . وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض . . وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جلَّ شأنه تكريم هذا الإنسان ! . . وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض . . (القرآن) : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ (٣) .

وكرمه بإسناد الخلافة إليه في هذه الأرض ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي**

---

(١) القاموس المحيط : مادة (عرف) ، وراجع لسان العرب مادة (عرف) .

(٢) التعريفات ص ٢٨٣ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٧٠ ، في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٤١ .

الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[١] وهي مهمة عظيمة ، ومنزلة كريمة ، لابد أن الله قد أودع فيه من الأسرار ، والإمكانات ما يؤهله لهذه الخلافة ، واستفسرت الملائكة عن سر هذا الاختيار ﴿ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[٢] فبيَّنَ الله لهم أنه وهبه من الأسرار ما يرفعه، لقد وهب سر المعرفة، وأودع العلم، قال تعالى : ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[٣] .

الفصل الأول

الناس فطروا على معرفة الله تعالى

إن في مقدمة تلك الأسرار والإمكانات التي فطر الله الناس عليها أن عرفهم بذاته المقدسة ، لأن هذه المعرفة من ألزم الضرورات ، إذ هي غذاء للروح ، وسكن للنفس ، ومن متطلبات القلب ، وتتوق الأنفس إلى الاستزادة منها ، وتشرئب الأعناق إليها ؛ لأن حاجة الناس إليها فوق كل حاجة ، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة ؛ « لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولاطمأنينة ، إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ويكون مع ذلك أحب إليها مما سواه »[٤] .

إن قضية الإيمان بخالق للإنسان ، والكون ، والحياة ، قضية راسخة في الفطرة الإنسانية ، عميقة الجذور عمق الشعور بالذات البشرية واحتياجاتها وعجزها وافتقارها إلى الملجأ والملاذ . فكما يشعر الإنسان بعمق غرائزه الأبوية وحب البقاء وحب التملك في كيانه ، ويشعر بالقلق والاضطراب في حياته إن لم يشبعها بالطريقة السليمة، فكذلك شعوره بالاضطراب والقلق إن لم تشبع غريزة التدين فيه بإشباع الأشواق الروحية، وتوجيهها الوجهة السليمة للمعبود الحق»[٥] . وإليك الأدلة على فطرية معرفة الله تعالى :

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٣١ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ١ /٦ .

(٥) مباحث في التفسير الموضوعي ص ٩٥ .

المبحث الأول
الأدلة النقلية

توحي نصوص الكتاب والسنة أن توحيد الله مما فطر عليه الناس ، وأخذ الله « عليهم الميثاق في ذات أنفسهم ، وذات تكوينهم ، وهم بعد في عالم الذر ! ، إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري ، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة ، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته ، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة ، أما الرسالات فتذكير وتحذير . إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر مذ كينونتهم الأولى فلا حجة لهم في نقض الميثاق »(١) ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾(٢) . فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ أنه قال : « أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمات (يعني عرفة) فأخرج من صلبه كل ذرة ذرأها فنثرهم بين يديه كالذَّرِّ ، ثم كلمهم قبلاً ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾(٣) .

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾(٤) ، قال : « أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط في الرأس، فقال لهم : ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** ﴾(٥) . وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال : « خلق الله آدم ثم أخرج ذريته من ظهره فكلمهم الله ، وأنطقهم ،

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٣٩١ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

(٣) سورة الأعراف : الآيتان ١٧٢ – ١٧٣ . والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ١ / ٢٧٢ والحاكم في المستدرك ١ / ٢٧ – ٢٨ ، ٢ / ٥٤٤ . وقال حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، قال ابن كثير إسناده جيد على شرط مسلم (البداية والنهاية ١ / ٩٠) .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ . والحديث رواه الطبري في تفسيره : ح (١٥٣٦٥) ٦ / ١٦٢ .

فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » [١] ، وقد روي عنه بنحوه روايات كثيرة [٢] . وروي بنحوه عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – موقوفاً [٣] . وروي عن الضحاك في تفسير الآية ، قال: « خلقهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى »[٤] . قال السدي: « هو خبر من الله عن نفسه ، وملائكته أنه جل ثناؤه قال هو وملائكته إذ أقرَّ بنو آدم بربوبيته حين قال لهم : ألست بربكم ؟ فقالوا : بلى » [٥] . وروى ابن عبد البر عن محمد بن كعب في تفسير الآية ، فقال: « فأقروا له بالإيمان والمعرفة ، الأرواح قبل أن تخلق أجسادها » [٦] . وروي عن أبي بن كعب قال : « فجمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً ، ثم صورهم ، ثم استنطقهم ، فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة : لم نعلم هذا . وقالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك » [٧] .

وروى أبو داود عن حجاج بن المنهال قال: سمعت حماد بن سلمة يفسر حديث « كل مولود يولد على الفطرة » قال : هذا عندنا حيث أخذ الله عليهم العهد في أصلاب آبائهم حيث قال: ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** ﴾ [٨] » .

قال إسحاق بن راهويه : « أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد ، استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، فقال : انظروا ألا تقولوا : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنامن قبل وكنا ذرية من بعدهم » [٩] .

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: رقم (١٥٣٨١) ٦ / ١١٥ .

(٢) رواه الطبري في تفسيره : رقم (١٥٣٥٠) إلى رقم (١٥٣٥٦) و (١٥٣٦١) و (١٥٣٦٢) و (١٥٣٧٢) و (٦/ ١١٣ – ١١٦) .

(٣) رواه الطبري في تفسيره : رقم (١٥٣٦٦) و (١٥٣٦٧) ٦ / ١١٢ . قال ابن كثير في البداية والنهاية ١ / ٩٠ : « وهكذا روي عن عبد الله بن عمرو موقوفاً ومرفوعاً، والموقوف أصح » .

(٤) رواه الطبري في تفسيره : رقم (١٥٣٨٠) ٦ /١١٥ .

(٥) رواه الطبري في تفسيره : رقم (١٥٣٩١) ٦ /١١٦ – ١١٧ .

(٦) رواه ابن عبد البر في التمهيد ١٨ / ٨٠ .

(٧) رواه ابن عبد البر في التمهيد ١٨ / ٩١ – ٩٢ .

(٨) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ . والحديث رواه أبو داود في سننه : السنة/١٧، رقم (٤٧١٦) ٢ / ٦٤٢ .

(٩) التمهيد ١٨ / ٨٤ .

وقال ابن الأنباري : «مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه، وأصلاب أولاده وهم في صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم، وأنهم مصنوعون فاعترفوا بذلك، وقبلوا ذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها»[١] . ولما كان الناس فطروا على الإسلام فإن معرفة الله جزء من هذا الإسلام الفطري .

توحيد الربوبية تقر به الفطرة :

توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه، وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت، النافع الضار، القادر على ما يشاء بيده كل شيء.

وهذا النوع من التوحيد مركوز في الفطر، قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾[٢] ، ولم ينكره إلا من شذّ – ممن فسدت فطرته – من الناس، لأن «القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت رسلهم – عليهم السلام – فيما حكى الله عنهم: ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[٣] .

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقناً به في الباطن ، كما قال له موسى – عليه السلام – : ﴿ **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ** ﴾[٤] ، وقال تعالى عنه ، وعن قومه : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾[٥] ، ولهذا قال: ﴿ **وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ؟ على وجه الإنكار له تجاهل العارف ، قال له موسى : ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[٦] . فبيّن موسى

---

(١) الروح ص ٢٥٤ .
(٢) سورة الزخرف : الآية ٨٧ .
(٣) سورة إبراهيم : الآية ١٠ .
(٤) سورة الإسراء : الآية ١٠٢ .
(٥) سورة النمل : الآية ١٤ .
(٦) سورة الشعراء : الآية ٢٤ – ٢٨ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٢٦ .

– عليه السلام – أنهم يعرفون الله ، وأن آياته ظاهرة للعيان بينة لا يمكن معها جحده ، وأنهم إنما يجحدون بألسنتهم ما يعرفونه بقلوبهم ، كما قال موسى عليه السلام في موضع آخر لفرعون : ﴿ **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ** ﴾ (١) .

إذاً فمعرفة الله ليست مجال شك، ولا مثار ريبة، بل تنطق بها الفطر السليمة ، لأنها مجبولة على الإقرار به ، ولذا كان جواب الرسل – عليهم السلام – للمعاندين باستفهام إنكاري فيه التوبيخ والتقريع : ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ (٢) .

ولوضوح هذا الأمر كان أول ما يدعو الرسل إليه عبادة الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾(٣) ، وقال تعالى ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ (٤) ؛ لأن توحيد الربوبية مما تقر به الفطر بدليل أن مشركي مكة كانوا يقرون به ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ (٥) ، وقال تعالى: ﴿ **قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ (٦) .

وكانوا يعبدون الأصنام لا لكونهم يعتقدون أنها شركاء لله في الربوبية ، وإنما كانوا يتخذونهم شفعاء ويتوسلون بهم إلى الله كما أخبر عنهم تعالى : ﴿ **الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾(٧) ، وقال تعالى: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (٨) .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٠٢ ، وراجع مجموع الفتاوى ٦ / ٣٣٤ .
(٢) سورة إبراهيم : الآية ١٠ .
(٣) سورة النحل : الآية ٣٦ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ٥٩ .
(٥) سورة لقمان : الآية ٢٥ .
(٦) سورة المؤمنون : الآية ٨٤ – ٨٥ .
(٧) سورة الزمر : الآية ٣ .
(٨) سورة يونس : الآية ١٨ .

إذاً فالرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها، وتقويته وإمداده، ونفي المغير للفطرة، قال تعالى: ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ** ﴾ (٢).

يقول الشيخ ابن تيمية: «ولو لم تكن المعرفة ثابتة في الفطرة لكان الرسول إذا قال لقومه: أدعوكم إلى الله لقالوا مثل ما قال فرعون: وما رب العالمين؟ إنكاراً له وجحوداً ... وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق لكن أظهر خلاف ما في نفسه كما قال تعالى: ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ (٣).

ولكون القلوب قد فطرت على معرفة الله تعالى نجد أن الله سبحانه وتعالى يقيم الدليل لخلقه على توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية؛ لأن التوحيد الأول يستلزم الثاني، قال الله تعالى ﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (٤).

وهذه الآيات بإيقاعاتها المؤثرة في النفس وحججها الباهرة أشبه ما تكون بومضات كهربائية لإيقاظ القوم من سباتهم العميق، ومن غفلتهم، وهم أمام هذه الحجج المتلاحقة لا

(١) سورة المائدة: الآيتان ١٥ – ١٦.

(٢) سورة طه: ١٢٣.

(٣) درء تعارض العقل مع النقل ٨/٤٤٠.

(٤) سورة النمل: الآيات ٥٩ – ٦٤.

يملكون إلا التسليم ، ولا يستطيعون أن يدعوا أن مع الله إلهاً آخر ، ومع هذا فالقوم ماضون في غيهم ويعبدون أرباباً من دون الله ؟! .

سبب انتشار الإلحاد في العصور الحديثة :

إن الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله ، لم يوجد بهذه الصورة ، وبهذا الإتساع الذي تمارسه الجاهلية الحديثة في أي مرحلة سابقة من مراحل التاريخ . وقد يستدل بعض الناس بالآية الكريمة : ﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ** ﴾ (١) على أنه وجد الإلحاد في الجاهلية العربية ، والآية لا تشير إلى ذلك ، إنما تشير إلى إنكار المشركين للبعث ، وكما قال القرطبي فإنهم كانوا أصنافاً منهم من « كان يثبت الصانع وينكر البعث ، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره » (٢) .

ويعتبر الفلاسفة الدهريون من الملاحدة ، لأنهم جحدوا الصانع ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع (٣) ، إلا أن هؤلاء كانوا شرذمة قليلة ؛ لأن الفطرة إن ضلت طريقها تتجه إلى الشرك لا إلى الإلحاد .

لقد كانت مؤهلات الشرك كلها قائمة في الجاهلية المعاصرة منذ النهضة الأوربية إلى اليوم ، مما ران على القلوب من غفلة ، ومن الهبوط الخلقي واتباع الشهوات ، ومن تحكيم غير شريعة الله ، ولكن لأمر ما لم تؤد هذه المؤهلات بأوربا إلى الشرك – كما كان شأنها في الجاهليات السابقة – ولكنها أدت بها إلى الإلحاد . لقد كانت الكنيسة الأوربية – بحماقاتها – هي المسؤول الأول عن ذلك ، حين حاربت العلم والعلماء ، مما أدى بفئة من العلماء إلى الإلحاد ، واستغل اليهود الأحداث التي هيأتها لهم حماقة الكنيسة ، وردود الفعل التي نشأت من تلك الحماقة ، فركبوا الموجة إلى نهايتها ، ونفذوا كل ما في جعبتهم من مخططات الإفساد في الأرض ، لاستحمار الأميين واستعبادهم لصالح الشعب الشرير .

---

(١) سورة الجاثية : الآية ٢٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ١٧٢ .

(٣) راجع المنقذ من الضلال ص ٩٦ .

والإلحاد بالذات هدف أساسي من أهداف المخطط الشرير ، فالهدف الأخير من المخطط كله هو إزالة كل دين في الأرض ليبقى اليهود وحدهم في الأرض أصحاب الدين ! .

إن اليهود في هذه المرة لم يفسدوا عقائد الأميين كما كانت محاولاتهم السابقة في التاريخ ، إنما أفسدوا فطرتهم .

والإلحاد لا يستحق منا مناقشة «علمية» جادة لأنه ليس من الأمور الجادة التي عرضت للبشرية في مسيرتها على هذه الأرض، إنما هو عبث صنعه الشياطين، وأوقعوا فيه المستغفلين من الأميين[١] ، وكل الحقائق العلمية الحديثة تشير بلا استثناء إلى عظمة الخالق ، وإلى تهافت شبه الملحدين ، وبدا صوت الإلحاد يخفت في العالم المعاصر بعد زوال الدول الشيوعية .

يقول سيد قطب – رحمه الله – : « إن المعركة الحقيقية لم تكن قط بين الاعتقاد والإلحاد ، ولن تكون ، فالإلحاد يقضي على نفسه بنفسه ، إنه عملية انتحار ، والإلحاد تقاومه الفطرة ، والفطرة أغلب . ولكن المعركة كانت وستكون دائماً بين الاعتقاد الحق والاعتقادات الباطلة ، بين توحيد الألوهية واتخاذ الأرباب المتفرقة ، بين العبودية لله وحده بلا شك ، والدينونة لله وحده بلا منازع ، وبين توزيع خصائص الألوهية على الأرباب المتفرقة ، والعبودية التي تتوزعها شتى الأرباب »[٢] .

المبحث الثاني

شواهد على فطرية المعرفة

هنالك شواهد كثيرة تؤكد فطرية معرفة الله تعالى ومن ذلك :

أولاً : إقرار البشر جميعاً بوجود الخالق – مع التباين الجغرافي ، وبعد المسافات فيما بينهم ، والحواجز الطبيعية – روى ابن عبد البر عن ابن مسعود – رضي الله عنه – وعن ناس

(١) راجع مذاهب فكرية معاصرة ص ٦٠٥ – ٦٣٠ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٣ .

من أصحاب النبي ﷺ – في قول الله عز وجل – : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ (١) إلخ الآية . . . قالوا : فليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف الله أنه ربه ، وذلك قوله عز وجل : ﴿ **أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾ (٢) . وقال السدي : « فلذلك ليس في الأرض أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن ربه الله » (٣) .

ثانياً : إن شعور الإنسان بوجود الله يملك كيانه وإحساسه ، ويلزم نفس العبد لزوماً لا يمكن الانفصال عنه ، وهو أشد رسوخاً في النفس من مبدأ العلم الرياضي ، كقولنا : إن الواحد نصف الاثنين ، ومبدأ العلم الطبيعي، كقولنا : إن الجسم لا يكون في مكانين ، لأن هذه المعارف أسماء قد يعرض عنها بعض الناس ، وأما العلم الإلهي فما يتصور أن تعرض عنه فطرة .

ثالثاً : ومن الشواهد على فطرية هذه المعرفة الالتجاء إلى الله في حالات الكوارث ، وخاصة الفجائية منها ، فنرى الأشخاص الذين يتعرضون للحوادث يجأرون إلى الله بالدعاء ، ويستغيثون به دون تفكير أو وعي ، كقولهم يا الله ، أو يا رب ، قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ (٤) .

إن تعري الفطرة مما شابها من الشرك نجده في القرآن غالباً ما يعرض في سياق مشهد الفلك في البحر ، وهو نموذج للحظات الشدة والحرج ، حيث تتقاذف بهم الأمواج وهم على خشبة ، وفي هذه اللحظات الحرجة ينقطع الرجاء إلا من الله، حيث بلغت القلوب الحناجر ، وفي وسط هذا الهول المتلاطم تتعرى فطرتهم مما ألم بها ، وتنفض عنها غبار الشرك ، وتسقط عنها الحواجز الباطلة ، وتنبض بالتوحيد الخالص ، وإخلاص الدين له ، وما إن تشملهم العناية الإلهية بالرحمة فتهدأ العاصفة ، وتهدأ النفوس اللاهثة ، وتسكن القلوب الطائرة ، وتصل الفلك إلى الشاطيء آمنة ، وحين تلامس أقدامهم اليابسة ، ويوقنون بالنجاة

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٨٣ ، وراجع التمهيد ١٨ / ٨٥ – ٨٦ .

(٣) رواه الطبري في تفسيره : رقم (١٥٣٩١) ٦ /١١٦ – ١١٧ .

(٤) سورة يونس : الآية ٢٢ .

تظل فئة قليلة ذاكرة شاكرة ، وإن لم توف حق الله في الذكر والشكر ، وطائفة كبيرة تجحد وتنكر آيات الله بمجرد زوال الخطر ، وعودة الرخاء ، فينسون الله ، وتتقاذفهم الأهواء ، وتجرفهم الشهوات ، وتغطي على فطرتهم التي جلاها الخطر ، قتل الإنسان ما أكفره ، فهم في قبضة الله في البر والبحر فكيف يأمنون !؟ قال الله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (٢) .

يقول الإمام القزويني : « الدليل على أن معرفة الله واجبة كونها من الأمور التي تصل العقول إليها ، فإن الإنسان إذا دهاه أمر وضاق به المسالك فلا بد أن يستند إلى إله يتألّه له ، ويتضرع نحوه ، ويلجأ إليه في كشف بلواه ، ويسمو قلبه صعوداً إلى السماء ، ويشخص ناظره إليها ... فيستغيث خالقه وبارئه طبعاً وجبلةً لا تكلفاً وحيلة ... وهي الفطرة المذكورة في القرآن والحديث ، ولكن أكثر الناس قد ذهلوا عن ذلك في حالة السراء ، وإنما يردون إليه في الضراء ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ (٣) .

يقول أستاذنا الدكتور مصطفى مسلم : « في حالات الرخاء ، أو في حالات تلبية الحاجات من قبل المخلوقين قد تلقى ظلال من الغبش والرين على صفاء الفطرة فينحرف بها صاحبها، وتنكر وجود خالقها ورازقها والمتصرف في شؤونها ، ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (٤) . إلا أن هذا الغبش وهذا الران على الفطرة سرعان ما يزول وتعود الفطرة إلى صفائها ، وتلتجيء إلى خالقها عندما تنقطع عنها الأسباب ، وتشعر بحالة من

(١) سورة الإسراء : الآيتان ٦٦ – ٦٧ .

(٢) سورة لقمان : الآية ٣٢ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٦٧ ، نقلاً عن مباحث في التفسير الموضوعي ص ١٤٥ .

(٤) سورة العلق : الآيتان ٦ – ٧ .

حالات الاضطرار التي لا يملك صاحبها معها التصرف فعندئذٍ تظهر علامات الخشوع والخضوع والالتجاء إلى الباريء المصور ، فتخلص في هذا الالتجاء وفي هذا الدعاء » [١] .

وليس ثمة طغيان أكبر من طغيان فرعون ، فقد أنكر وجود الخالق البارىء ، واستمع إلى هذه المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون الطاغية ، قال تعالى : ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [٢] ، وزاد بفرعون البؤس ، والشقاء فزعم أنه إله من دون الله ، قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾[٣] ، وتوعد نبي الله موسى – عليه السلام – إن لم يتخذه إلهاً بعد أن رأى من آيات ربه الكبرى ، والحجج العقلية ، ﴿ **قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** ﴾ [٤] .

ولنلق نظرة على المشهد النهائي لمأساة البغي والفساد ، والتحدي والعصيان ، والتكبر والجبروت ، لقد فرّ بنو إسرائيل من طغيانه ، وجبروته ، وترويعه ، فلم يرضِ ذلك غروره ، فأتبعهم فرعون بجنوده بغياً وعدواناً ، ورأى بأم عينيه آيات ربه – انشقاق البحر لبني إسرائيل – فلم يرتدع ، فسار على إثرهم ، فأدركه الغرق ، وفي هذه اللحظات الحرجة أسقط في يده ، وأيقن بالهلاك ، وعاين الموت بأم عينيه ، فتعرت فطرته عن كل ثياب الجبروت ، والتكبر ، والطغيان ، وأعلن عبوديته ، وإيمانه المطلق بالله – عزّ وجل – وولاءه للإله الذي دانت له بنو إسرائيل ، وأعلن إسلامه ، يخبرنا الله – عزّ وجل – عن هذه اللحظات الأخيرة من حياة فرعون فيقول : ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا**

(١) مباحث في التفسير الموضوعي ص ١٤٥ .
(٢) سورة الشعراء : الآيات ٢٣ – ٢٨ .
(٣) سورة القصص : الآية ٣٨ .
(٤) سورة الشعراء : الآية ٢٩ .

أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) ، ولكن فات الأوان ولم تعد تنفع التوبة ، قال تعالى : ﴿ **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ (٢) ، لأن سنة الله جرت في خلقه أنْ يقبل التوبة من أحدهم ما لم يحضره الموت : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾ (٣) .

يحكى أن رجلاً قال لجعفر الصادق – رضي الله عنه – : « اذكر لي دليلاً على إثبات الصانع ، فقال : أخبرني عن حرفتك ، فقال : أنا رجل أتَّجر في البحر ، فقال : صف لي كيفية حالك ، فقال : ركبت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة ، فقال جعفر : هل وجدت في قلبك تضرعاً ودعاء ، فقال : نعم ، فقال جعفر : فإلهك هو الذي تضرعت إليه في ذلك الوقت » (٤) . وقد أخبرني رجل عن زميل له يدعي الإلحاد ، وقال : كنا في سيارة وفجاءة تعرضنا لحادث مروري ، وما كان من صاحبي إلا أن استغاث بالله ، ولما مضى الحادث بسلام ذكرت له قوله في الاستغاثة بالله مع العلم أنه يدعي الإلحاد ، فكان جوابه أن تلك الاستغاثة ظهرت منه دون وعي .

وهناك شواهد يومية تؤكد هذه المعرفة الفطرية ، وقد نشرت إحدى المجلات مقالة مترجمة نشرت أيام الحرب لشاب من جنود المظلات – يوم كانت المظلات والهبوط بها شيئاً جديداً – يقول : إنه نشأ في بيت ليس فيه من يذكر الله ، أويصلي ، ودرس في مدارس ليس فيها دروس للدين ، ولا مدرس متدين ، نشأ نشأة علمانية مادية ، ولكنه لما هبط أول مرة ورأى نفسه ساقطاً في الفضاء قبل أن تنفتح المظلة جعل يقول : يارب ، ويدعو من قلبه ، وهو يتعجب من أين جاءه هذا الإيمان (٥) ؟!! .. إنه نداء الفطرة الذي ينبع من أعماق النفس الإنسانية .

---

(١) سورة يونس : الآية ٩٠ .
(٢) سورة يونس : الآية ٩١ .
(٣) سورة النساء : الآية ١٨ .
(٤) تفسير الفخر الرازي ٩ / ٧١ .
(٥) راجع تعريف عام بدين الإسلام ص ٤٨ .

رابعاً : وإليك صورة أخرى للدلالة على هذه المعرفة الفطرية ، ألا وهي الأسئلة الملحة التي تفرض نفسها على الإنسان منذ الصغر مثل: من خلقني؟ ولماذا خلقني؟ وكيف أرضيه؟ وما مهمتي في هذه الحياة؟ وإلى أين يؤخذ بي ؟! .

ولا يمكن للإنسان بحال من الأحوال أن يغفلها حتى ولو كانت جميع متطلباته المادية متوفرة ، ولقد أوحى هذا التقدم الهائل – في مجال التقنية وغيرها وتوفير أفضل متطلبات الراحة للإنسان – لأحد فلاسفة الغرب أن قال : لسنا بحاجة إلى الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) ، ومثله كمثل النعامة التي خبأت رأسها في الرمل ظناً منها أنّها أخفت نفسها عن الصياد ، ولا أدلَّ على أن توفير المتطلبات الجسدية لا تكفي وحدها ، مما نجده من انتشار ظاهرة الانتحار في بلدان دخلُ الفرد فيها عالٍ مثل السويد .

يقول ابن تيمية : « كون الخلق مفطورين على الإقرار بالخالق أمر دلَّ عليه الكتاب والسنة ، وهو معروف بدلائل العقول ، كما قد بُسط في مواضع وبُيِّن أن الإقرار بالخالق فطري ضروري في جبلات الناس ، لكن من الناس من فسدت فطرته فاحتاج إلى دواء ، بمنزلة السفسطة التي تعرض لكثير من الناس في كثير من المعارف الضرورية ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، وهؤلاء يحتاجون إلى النظر ، وهذا الذي عليه جمهور الناس : أن أصل المعرفة قد يقع ضرورياً فطرياً ، وقد يحتاج فيه إلى النظر والاستدلال »(١) .

وأقرَّ بهذه الحقيقة بعض المفكرين الغربيين ، أمثال « مارتن لوثر » حيث يرى : « أننا نعرف الله بالفطرة ذلك أن الناموس موجود في القلب بالطبع ، ولو لم يكن الناموس الطبيعي منقوشاً في القلب بواسطة الله لكان من الضروري أن نعظ طويلاً جداً قبل أن تتأثر الضمائر ، ولابد من القيام بالوعظ طوال مائة ألف سنة قبل أن يقبل الحمار ، أو الثور ، أو الفرس ، أو البقرة الإقرار بالناموس ، على الرغم من أن لها آذاناً وعيوناً وقلوباً مثلما للإنسان ، إنها تستطيع أن تسمعه، لكنه لا يقع أبداً في قلبها . لماذا ؟ وماذا ينقصها ؟ إن نفسها لم تصنع ولم تخلق بحيث يمكن أن تنفذ فيها هذه الأمور ، أما إذا ذكر الناموس للإنسان فإنه يقول

---

(١) جامع الرسائل ١ / ١٤ .

على الفور : نعم هذا صحيح أنا لا أستطيع إنكار هذا ، وما كان يمكن إقناعه بهذه السرعة لو لم يكن من قبل مكتوباً في قلبه .

وينتهي « لوثر » من هذا إلى توكيد أن الله يُعرف بالفطرة ، لقد جبل الإنسان بحيث يمكن إيقاظه على المعرفة الطبيعية بوجود الله ، وبالأمور الإلهية » [١] .

وصرح « ديكارت » أن معرفة الله أساسها نفسي فطري ، حتى إن الذي يغمض عينيه ، ويسد أذنيه ، ويقطع علاقته بالكون وبالناس ، ثم ينطوي على نفسه ، ويتحسس أفكاره يجد مفتاح هذه العقيدة حاضراً بين طيات نفسه [٢] .

وأقرَّ الفيلسوف الألماني « عما نوئيل كانط » أن معرفة الله أصيلة في العقل الإنساني ، وإن كانت موضوعات الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) لا تصلنا عنها مدركات حسية ، ولذلك لا نستطيع معرفتها ، بيد أن من طبيعة العقل البشري أن يتجاوز نطاق التجربة لكي يبحث عن الحقيقة اللامشروطة التي تشبع نزوعه نحو المطلق [٣] .

انحسار مذهب التطور التقدمي في أوربا :

ساد في أوربا في القرن التاسع عشر مذهب (التطور التقدمي أو التصاعدي) في أكثر فروع العلوم ، وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان ، عدد من العلماء منهم : « سبنسر » ، و « تيلور » ، و « فريزر » ، و « دوركايم » ، وغيرهم ، وذهبوا إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد ، كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعاته ، حتى زعم بعضهم أن عقيدة « الإله الأحد » عقيدة جد حديثة ، وأنها وليدة عقلية الجنس السامي ، إلا أن وجهات نظرهم اختلفت في تحديد صورة العبادة الأولى وموضوعها .

وذهب بعض كتاب القرن الثامن عشر إلى أن الديانات والقوانين ما هي إلا منظمات مستحدثة ، وأعراض طارئة على البشرية حتى قال « فولتير » : إن الإنسانية لا بد أن تكون

---

(١) موسوعة الفلسفة ٢ / ٣٦٦ .

(٢) راجع الدين ص١٤٣ ، وموسوعة الفلسفة ١ / ٤٩٥ – ٤٩٦ .

(٣) راجع كانط ص ١٤٤ . و نظرية الواجب الأخلاقي عند كانط ص ١٥٩ – ١٦٢ .

قد عاشت قروناً متطاولة في حياة مادية خالصة ، قوامها الحرث ، والنحت والبناء ، والحدادة ، والتجارة ، قبل أن تفكر في مسائل الدينيات والروحيات ، بل قال : إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون من الكهنة والقساوسة الذي لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء . ولقد أعان على ترويج هذه الآراء في أوربا في ذلك الوقت سببان :

أحدهما : الانحلال الخلقي عند نفر من رجال الكنيسة ، **والثاني** : ظلم القوانين الوضعية ، وسوء توزيع الثروة العامة ، فكان من السهل أن يظن الناس أن الدين والقانون كانا كذلك في كل زمان ومكان .

ولم يَنْقَضِ القرن الثامن عشر حتى ظهر خطأ هذه المزاعم، حيث كثرت الرحلات خارج أوربا، واكتشفت العوائد والعقائد والأساطير المختلفة، وتبين من مقارنتها خطأ النظرية السابقة فقد أثبت أصحاب نظرية (فطرية التوحيد وأصالته) – التي انتصر لها جمهور من علماء الأجناس ، وعلماء الإنسان ، وعلماء النفس – خطأ تلك النظرية ، وبينوا بالطرق العلمية أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر ، مستدلين بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة ، أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

ومن أبرز مشاهير هذه المذهب « لانج » الذي أثبت وجود عقيدة (الإله الأعلى) عند القبائل الهمجية في أستراليا ، وإفريقيا ، وأمريكا ، ومنهم « شريدر » الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة ، و « بروكلمان » الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام ، و « لرواه » ، و « كاترفاج » عند أقزام أواسط إفريقيا ، و « شميت » عند الأقزام وعند سكان أستراليا الجنوبية الشرقية ، وقد انتهى بحث « شميت » هذا إلى أنّ فكرة « الإله الأعظم » توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية [١] . إذاً فالتدين ظاهرة عريقة ، وسابقة لكل حضارة ، وهي مشتركة بين جميع أجناس البشر .

---

(١) راجع الدين ص٨٠ – ٨١ و ٧١ – ١٠٨ .

ويظهر لنا بجلاء خطأهذه النظرية في النقاط التالية :

١ – الخطأ الشنيع في هذا المذهب التطوري ، هو أن أنصاره جعلوا من استقراء أحوال أوربا في فترة زمنية معينة قانوناً يستوعب التاريخ كله ، فأثينا كانت تعبد آلهة شتى ، وكانت تزعم أنها تسكن في جبال الألب ، ثم جاءت الدولة الرومانية وكانت وثنية ، ثم تنصرت روما – أو بمعنى أدق ترومت النصرانية – ومن ثم دانت أوربا بالنصرانية ، وأعقب ذلك في العصور الوسطى الانحلال الخلقي عند نفر من رجال الكنيسة .

وهكذا عمم أصحاب هذه النظرية هذه التجربة المحدودة في فترة زمنية ، ورقعة ضيقة على جميع العالم ، وتبين بعد ذلك أن الإيمان بالله هو أقدم ديانة ظهرت في البشر ، وسقراط أحد فلاسفة اليونان كان يؤمن بوجود خالق ، ومدبر فوق سائر آلهة اليونان ، وكان لا يؤمن بالعقائد الشعبية ، وقتل الرجل في سبيل هذا الاعتقاد [١] ، ومن الجدير ذكره أنه ولد قبل ميلاد عيسى – عليه السلام – بنحو من خمسة قرون .

٢ – قياس الملكات والأحاسيس الروحية على المكتسبات العقلية والتجريبية وشتان ما بينهما ، فمثلهم كمثل من يقول : لكون فلان من الناس مهندساً فهو أعلم الناس بالنحو ، فقد تأتي فترة يزدهر فيها الأدب وتتخلف الصناعة ، ثم يعقبها فترة ازدهار صناعي وتأخر في الأدب ، وهذا معهود من حال البشر .

٣ – التجربة تكذب هذا المذهب ، وتثبت عكس ما زعم أنصاره ، فالديانة النصرانية مثلاً كانت ديانة سماوية موحدة ، لكن مع الزمن تحولت إلى وثنية رومية ، وطبعت بطابع الوثنية عندما تنصر قسطنطين ملك الروم ، فانتقلت من التوحيد إلى الوثنية .

٤ – « لو كان هناك تطور حقّاً – كما يقولون – لكان من الطبيعي ، والمنطقي أن يكون هذا التطور من الوحدة إلى الكثرة ، لأن الواقع يدل على ذلك ، فأنت عندما تبدأ بالعد والحساب – مثلاً – تبدأ بالواحد وتنتهي بما بعده من كثرة ، وليس العكس » [٢] .

---

(١) راجع موسوعة الفلسفة ١ / ٥٧٩ .

(٢) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص٢٢٠ .

ومن أراد التوسع في رد شبهات (مذهب التطور التقدمي) عليه مراجعة كتاب « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز .

المبحث الثالث

أول واجب على العبد

اختلفت أقوال المتكلمين في أول واجب على العبد ، وذهب جمهورهم إلى وجوب المعرفة . وقد أورد الباجوري في هذه المسألة اثني عشر قولاً ، وعند التحقيق نجد بعض هذه الأقوال متداخلة ، أو مكررة ، قال الباجوري – رحمه الله – : « وجملة الأقوال في أول واجبات العبد اثنا عشر قولاً : أولها : ما قاله الأشعري إمام هذا الفن أنه المعرفة . وثانيها : ما قاله الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني أنه : النظر الموصل للمعرفة ، ويعزى للأشعري أيضاً . وثالثها : ما قاله القاضي الباقلاني أنه : أول النظر – أي المقدمة الأولى منه – نحو قولك : العالم حادث ، وكل حادث لابد له من محدث . مجموع المقدمتين هو : النظر ، والمقدمة الأولى هي : أول النظر . ورابعها : ما قاله إمام الحرمين أنه : القصد إلى النظر – أي تفريغ القلب عن الشواغل – وعزي للقاضي أيضاً . وخامسها : ما قاله بعضهم أنه : التقليد . وسادسها : أنه النطق بالشهادتين . وسابعها : ما قاله أبو هاشم من المعتزلة وغيرهم أنه الشك ، ورُدَّ بأنه مطلوب زواله ، لأن الشك في شيء من العقائد كفر ، فلا يكون مطلوباً حصوله ، ولعلهم أرادوا ترديد الفكر فيؤول إلى النظر . وثامنها : أنه الإيمان . وتاسعها : أنه الإسلام . وهذان القولان متقاربان مردودان باحتياج كل من الإيمان والإسلام للمعرفة . وعاشرها : اعتقاد وجوب النظر . وحادي عشرها : أنه وظيفة الوقت كصلاة ضاق وقتها فتقدم . وثاني عشرها : المعرفة أو التقليد ، أي أحدهما لا بعينه فيكون مميزاً بينهما . والأصح أن أول واجب مقصداً : المعرفة . وأول واجب وسيلةً قريبة : النظر ، ووسيلةً بعيدة : القصد إلى النظر ، وبهذا يجمع بين الأقوال الثلاثة »[١] .

قلت : والحق أن القول السادس ، والثامن ، والتاسع ، وهو الشهادة ، والإيمان ،

(١) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد ص ٢٠ – ٢١ .

والإسلام ، كلها يراد بها حقيقة واحدة ، وهي أن العبد مأمور بالدخول في الإسلام ، وهذا هو الرأي الراجح ، – لا كما زعم المتكلمون أن المعرفة أو النظر أول واجب – للأدلة التالية :

١ – إن معرفة الله كما تبين فطرية مغروسة في فطر بني آدم ، بل في فطرة هذا الكون بأسره ، فالكون من أقصاه إلى أقصاه يشهد بالوحدانية ، كل ذرة ، وكل حبة ، وكل نسمة ، وكل طائر ، وكل حيوان ، وكل شجرة، وكل حجر ، وهذا القول – أعني أول واجب المعرفة أو النظر – يكون صحيحاً عندما لا تكون المعرفة فطرية، أما وأنّها فطرية فليست بأول واجب .

وهنالك حالات استثنائية يكون فيها أول واجب المعرفة أو النظر، حينما تفسد الفطرة ، وذلك بأن يعيش الرجل حالة الشك أو الإلحاد ، وهذه قليلة ، وفي هذه الحالة يكون أول واجب معرفة الله ، إذ الإيمان يقوم على اليقين لا على الشك ، ومعرفة الله هي حجر الأساس في قضايا الدين والإيمان بأسرها . ثم إنّ هذه المعرفة الفطرية ناقصة ، ومن ثم فهي غير كافية ، لأن العقل يدرك أن للكون خالقاً عظيماً ، أما معرفة صفاته بالتفصيل ، وما واجباتنا حيال خالقنا ، وكيف نتقرب إليه فهذا كله خارج عن حدود العقل وإمكاناته ، ولذلك أتم الله هذا النقص بالوحي المنزل .

٢ – إن الرسل جميعاً جاءوا بالدعوة إلى إفراد الله بالعبادة ، وهو أول دعوة الرسل ، فهو أول واجب ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** ﴾ (٣) .

٣ – عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل – رضي الله عنه – حين بعثه إلى اليمن : « إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن هم طاعوا لك بذلك

(١) سورة النحل : الآية ٣٦ .
(٢) سورة الأنبياء : ٢٥ .
(٣) سورة محمد : ١٩ .

فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ... » [١] ، وقد « تواترت الأخبار أن النبي ﷺ – كان يدعو الكفار إلى الإسلام والشهادتين » [٢] ، وهذا يعني أنه أول واجب .

٤ – عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : إن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ... » [٣] . وفنّد قوام السنة إسماعيل بن محمد التيمي – رحمه الله – قول المتكلمين بأن أول واجب النظر المؤدي إلى معرفة الباري ، بأنه قول مخترع لم يقل به أحد من السلف ، وأئمة الدين ، ولم يرو عن الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – فكيف يخفى عليهم أول الفرائض وهم السفراء بيننا وبين رسول الله ﷺ ؟ . ولئن جاز أن يخفى هذا عليهم ، فلقد ذهب الدين واندرس ، لأنا إنما نبني أقوالنا على أقوالهم ، فإذا ذهب الأصل فكيف يمكن البناء عليه . وقد تواترت الأخبار أن النبي ﷺ كان يدعو الكفار إلى الإسلام والشهادتين ، ولم يرد أنه دعاهم إلى النظر والاستدلال [٤] .

وجملة القول : أن الرأي الراجح هو أن أول واجب هو الشهادة ، والدخول في الإسلام ، لأن معرفة الله فطرية ، إلا في حالات استثنائية عند أفراد ممن استهواهم الشيطان فطمس على قلوبهم وأسماعهم ، وأبصارهم ، كالملاحدة الشيوعيين ، فهؤلاء أول واجب في حقهم : النظر المؤدي إلى معرفة الباري . والله أعلم .

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه : المغازي ٦٠ ، ٥/١٠٩ ، ومسلم في صحيحه : الإيمان ٧ ، ح (٢٩) ١/٥٠ .

(٢) الحجة في بيان المحجة ٢/١١٨ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه : الإيمان ١٧ ، ١/١١ – ١٢ .

(٤) راجع الحجة في بيان المحجة ٢/١١٧ – ١١٩ .

الفصل الثاني
توحيد الله مركوز في فطرة الوجود
المبحث الأول
الحيوانات تعرف ربَّها

هذه المعرفة الفطرية لا تقتصر على الإنسان وحده بل تتعداه إلى الحيوانات ، فهذا الهدهد طير من عالم الطيور ، وفي نظر كثير من البشر أنه لا يدرك إلا الهداية العامة ، وهي هداية كل نفس إلى مصالح معاشها ، إلا أن الله – عز وجل – بين لنا أن الهدهد قد خاطب نبي الله بأعظم التوحيد ، لأن سليمان – عليه السلام – قد فهمه الله من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها ، قال الله تعالى : ﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾ (١) .

فهذه الآيات فيها من الدلالة على عظم معرفة الهدهد بالله ، فعندما علم بتوعد نبي الله له بادره بالعذر قبل أن ينذره بالعقوبة ، ليس هذا فحسب بل خاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه ، فقال : أحطت بما لم تحط به ، وهو خبر عظيم له شأن فلذلك قال : وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، ثم ذكر أنه وجد امرأة تحكمهم ، وقد أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك ، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها ، وأنه عرش عظيم ، ثم قال : وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وحذف أداة العطف من هذه الجملة ، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذاناً بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها ، ثم أخبر

(١) سورة النمل : الآيات ٢٠ – ٢٦ .

عن سبب ضلالهم – مع وجود الدلائل العظيمة المبثوثة في تضاعيف السموات والأرض – بأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، وأن هذا الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي يستحق وحده السجود ، فهو الذي ينزل القطر من السماء ، وينبت الأرض (١) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن المغيرة بن عيينة ، قال : قال داود – عليه السلام – : يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك مني فأوحى الله – عز وجل – إليه : نعم الضفدع (٢) .

والدلائل كثيرة على إدراك الحيوانات ومعرفتها بربها .

المبحث الثاني

الجمادات تعرف ربها

هذه المعرفة لا تقتصر على الإنسان والحيوان ، بل تتعداهما حتى إن كل الجمادات ، وكل ذرة في هذا الكون تعرف ربها . إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة الإنسان وحده ، ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله ، وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله ، إن ناموس التوحيد الذي يحكم هذا الوجود واضح الأثر في شكل الكون ، وتنسيقه ، وتناسق أجزائه وانتظام حركته واطراد قوانينه ، هذا الناموس مودع في كل خلية حية منذ نشأتها ، وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات ، وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد ، وكل ذرة ، وكل حبة ، وكل جماد ، وكل حيوان ، وكل نبات (٣) . فعن علي – رضي الله عنه – قال: « كنت مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبلنا جبل ولاشجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله »(٤) .

ومما يدل على أن الجمادات والمخلوقات تعرف ربها قوله سبحانه عن الحجارة : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ**

---

(١) راجع شفاء العليل ص ٧٠ – ٧١ .

(٢) كتاب الزهد ص ٨٨ .

(٣) راجع في ظلال القرآن ٣/١٣٩٤ – ١٣٩٥ .

(٤) رواه الترمذي في سننه : المناقب ٦ ، ح (٣٦٢٦) ، ٥/٥٩٣ .

الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، فأثبت الله عز وجل – لها الخشية، وهذا يدل دلالة واضحة على أنها تعرف ربها، وإلا لما هبطت من خشية الله، إذ الخشية تستلزم العلم بالمخشي (٢) .

والجبال تخشع لله ، قال الله تعالى : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ (٣) ، والجبل لم يثبت لتجلي الله عز وجل له، وهو دليل على معرفته بربه، قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** ﴾ (٤) .

ومن الأدلة على أن الجمادات تعرف ربها، قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** ﴾ (٥) « الأمانة الفرائض عرضها الله – عز وجل – على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك ، وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله – عز وجل – وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير » (٦) .

قال أبو الفرج ابن الجوزي : « ومذهب أهل السنة أن لله علماً في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره ، ولها صلاة وتسبيح وخشية ، كما قال – عز وجل – : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ **وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** ﴾ (٨) ، وقال : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ** ﴾ (٩) الآية ، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله تعالى » (١٠) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٧٤ .
(٢) راجع أضواء البيان ٦/٢٤٥ .
(٣) سورة الحشر : الآية ٢١ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ١٤٣ .
(٥) سورة الأحزاب : الآية ٧٢ .
(٦) تفسير القرطبي ١٤/٢٥٥ .
(٧) سورة الإسراء : الآية ٤٤ .
(٨) سورة النور : الآية ٤١ .
(٩) سورة الحج : الآية ١٨ .
(١٠) جامع الرسائل ١/٤٢ .

فسبحان من تعرف لكل شيء فما جهله شيء .

إلهي كيف تخفى وأنت الظاهر الذي ليس فوقك شيء .

أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر .

عميتْ عَيْنٌ لا تراك عليها رقيباً .

وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيباً .

لقد خاب من رضي دونك بدلاً .

وخسر من بغى عنك متحولاً [(١)] .

إلهي ارزقنا حلاوة الإيمان .. وحلاوة مناجاتك ومؤانستك .. ولذة عبادتك .

الفصل الثالث

المؤثرات على الفطرة

المبحث الأول

أسباب انحراف الفطرة عن التوحيد إلى الشرك

إن المعرفة الفطرية ليست تامة ، ولذلك تؤثر عليها مؤثرات خارجية فتشوهها وتفسدها ، ولعلنا نشير هنا إلى أهم الأسباب التي تشوه الفطرة ، وتكون سبباً لانحرافها عن مسارها الصحيح :

أولاً : الشياطين ، فالشياطين تزين لابن آدم المعاصي ، والإصرار على الضلال ، قال الله تعالى ﴿ **فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [(٢)] ، وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه – عزو جل – : « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » [(٣)] . وهذه هي مساكن عاد وثمود ، وقد كانوا عقلاء فاستهواهم الشيطان ، فماذا

(١) جزء من مناجاة ابن عطاء الله السكندري بتصرف . انظر آخر الحكم بشرح الشيخ زروق ص ٣٢٠ – ٣٣٢ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٤٣ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه : الجنة ١٦ ، ح (٢٨٦٥) ٢/ ٢١٩٧ .

كانت النتيجة : ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** ﴾ (١) ، ولذا فعلى المسلم أن يكون دائماً في غاية الحذر ، وأن يلتجيء إلى الله ويطلب منه العون ، والمدد ، قال تعالى : ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ** ﴾ (٢) .

ثانياً : إلغاء العقل ، والوسائل التي منحنا الله إياها للتدبر ، والتفكر ، والاتعاظ ، فمن شأن ذلك كله أن يلقي ظلمات أخرى على النور الفطري ، ومن ثم ينحدر الإنسان إلى مستوى أقل من الأنعام ، قال الله تعالى : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ (٣) .

ثالثاً : الوالدان المنحرفان والمجتمع والعادات الاجتماعية الفاسدة الموروثة ، من شأنها أن تلقي على نور بصيرتنا أنواعاً من الظلام ، قال تعالى : ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾(٤) . فالإنسان خلق على الفطرة التي هي الإسلام والخير ، فما الذي جعل الناس يهوداً ، ونصارى ، ومجوساً ؟ : « مامن مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » (٥) .

رابعاً : الأهواء والمصالح ، كما أن النور الفطري تفسده العادات الاجتماعية – المنحرفة – الموروثة ، فإن المصالح ، والأهواء من شأنها أن تلقيَ على نور بصيرتنا أنواعاً من الظلام ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** ﴾ (٦) ، وقال تعالى: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ (٧) . فالحسد والأهواء هي التي حالت دون إيمان اليهود بمحمد ﷺ مع أنهم كانوا

(١) سورة العنكبوت : الآية ٣٨ .
(٢) سورة المؤمنون : الآيتان ٩٧ – ٩٨ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١٧٩ .
(٤) سورة الزخرف : الآية ٢٢ .
(٥) سبق تخريج الحديث .
(٦) سورة الكهف : الآية ٢٨ .
(٧) سورة ص : الآية ٢٦ .

يوقنون أنه مرسل من عند الله ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ (١) . وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في تفسير الآية أنه قال : « يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب – يعني بذلك أهل الكتاب – فلما بعث الله محمداً ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه » (٢) .

خامساً : الإسراف في الرخاء ، ففي حالة الرخاء « وتلبية الحاجات من قبل المخلوقين قد تُلقَى ظلال من الغبش ، والرين على صفاء الفطرة ، فينحرف بها صاحبها وتنكر وجود خالقها ، ورازقها ، والمتصرف في شؤونها ، ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ** ﴾ (٣) » (٤) .

المبحث الثاني

جلاء الفطرة وإيقاظها

وجدنا أن ثمة أسباباً عدة تشوه الفطرة ، فما الذي يجلو الفطرة ، ويزيل عنها الغبش إنه أمران :

أولاً : التدبر في مخلوقات الله – عز وجل – : إن التدبر والتفكر في المخلوقات يوقظ الفطرة ، ويستثير الوجدان ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ (٥) .

روي عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أنه سأل أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – فقال : أخبرينا بأعجب ما رأيتيه من رسول الله ﷺ ، فبكت وقالت : كل أمره كان عجباً ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨٩ .

(٢) رواه الطبري في تفسيره : رقم (١٥٢٦) ١/٤٥٥ .

(٣) سورة العلق : الآيتان ٦ – ٧ .

(٤) مباحث في التفسير الموضوعي ص ١٤٥ .

(٥) سورة آل عمران : الآيتان ١٩٠ – ١٩١ .

أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي ، ثم قال : ذريني أتعبد لربي – عز وجل – ، قالت ، فقلت : والله إني لأحب قربك ، وإني أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ، وسجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى ، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، قالت ، فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر ؟ فقال : ويحك يا بلال ، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ هذه الليلة ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها [١] . ويستثير القرآن فينا هذا الوجدان أحياناً عن طريق إظهار العناية الإلهية بالإنسان ، قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [٢] . وفي هذا الباب آيات كثيرة . وهكذا كان السلف – رضوان الله عليهم – يرون نعم الله وآلاءه في كل شيء ، قال الشيخ أبو سليمان الداراني : «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليَّ فيه نعمة ، ولي فيه عبرة . . وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله – عز وجل – حسن ، والفكر في نعم الله أفضل العبادة . . وعن عامر بن قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ، ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان – أو نور الإيمان – التفكر » [٣] .

وأدلة القرآن تُذْكَر لإيقاظ الفطرة عند من فسدت فطرتهم ، ولزيادة الجانب المعرفي عند المؤمنين ، وليزدادوا إيماناً مع إيمانهم . ذكر ابن رشد طريقة القرآن الكريم في معرض رده على المتكلمين، فقال: «التي نبه الكتاب العزيز عليها ، ودعا الكل من بابها ، إذا استقرئ

(١) رواه ابن حبان (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) : الرقائق/التوبة ٢ /٩ . وأورده ابن كثير في (تفسير القرآن العظيم) – واللفظ له – ١ /٥٣٨ من طريقين .

(٢) سورة القصص : الآيتان ٧١ – ٧٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ١ /٥٣٥ – ٥٣٦ .

الكتاب العزيز وجدت تنحصر في جنسين : **أحدهما** : طريقة الوقوف على العناية بالإنسان وخلق الموجودات من أجله ، ولنسم هذا دليل العناية . **الطريقة الثانية** : ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل : اختراع الحياة في الجمادات ، والإدراكات الحسية ، والعقل ، ولنسم هذه دليل الاختراع »[١] . وخير من يحدثنا عن قوة وفائدة الحجج التي في القرآن إمام هذا الشأن فخر الدين الرازي ، الذي خاض لجة علم الكلام حيث يقول في آخر كتابه (أقسام اللذات) :

أما اللذة العقلية فلا سبيل إلى الوصول إليها ، والتعلق بها فلهذا السبب نقول : يا ليتنا بقينا على العدم الأول ، وليتنا ما شهدنا هذا العالم ، وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن ، وفي هذا المعنى قلت :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولةٍ ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شرفاتِها ... رجالٌ فزالوا ، والجبال جبال

واعلم أنه بعد التوغل في هذه المضايق ، والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق ، رأيت الأصوب الأصلح في هذا الباب طريقة القرآن العظيم ، والفرقان الكريم ، وهوترك التعمق ، والاستدلال بأقسام أجسام السموات والأرضين على وجود رب العالمين ، ثم المبالغة في التعظيم من غير خوض في التفاصيل »[٢] ، وعاد رحمه الله فأكّد هذه الحقيقة في وصيته ، فقال : «ولقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما رأيت منها فائدة تساوي الفائدة التي تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن ، لأنه يسعى في تسليم

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ٦٠ .
(٢) نقلاً عن اجتماع الجيوش الإسلامية ٢ / ٣٠٤ – ٣٠٥ . والصواعق المرسلة ٢ / ٦٦٥ – ٦٦٦ .

العظمة والجلال لله ، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات و المناقضات ، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المضايق العميقة ، والمناهج الخفية » [١] .

ثانياً : المحنة والشدة والضر : وقد مرَّ بنا أن مشهد تعري الفطرة مما شابها من الشرك نجده في القرآن غالباً ما يعرض في سياق مشهد الفلك في البحر ، وهو نموذج للحظات الشدة والمحنة ، حيث تتعرى مما ألمَّ بها ، وتنبض بالتوحيد الخالص ، وإخلاص الدين له .

المبحث الثالث

المحافظة على الفطرة وإرشادها

ذكرنا أهم الأسباب التي تشوه الفطرة وتغيرها ، وحتى في غياب هذه الأسباب تظل الفطرة قاصرة ، وهي بحاجة إلى عناية ، ورعاية ، وتوجيه، قال رسول الله ﷺ : « وأشهدك أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة وإني لا أثق إلا برحمتك » [٢] .

فالعقل يدرك أن للكون خالقاً عظيماً ، أما معرفة صفاته بالتفصيل ، وما واجبنا حيال خالقنا ، وكيف نتقرب إليه ، فهذا كله خارج عن حدود وإمكانات العقل ، عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت : « لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري ، ثم يقول : اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكني لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته » [٣] .

ولذلك اقتضت الحكمة بأن يتم هذا النور الفطري ، بالوحي الإلهي ، « ولهذا كانت الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها ، وتقويته ، وإمداداه ، ونفي المغير للفطرة ، فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها ، لا بتغيير الفطرة وتحويلها ، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة » [٤] ، قال تعالى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [٥] ، فالنور الفطري يتممه نور الوحي الإلهي .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٩١ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ١٩٩ .

(٣) رواه ابن إسحاق انظر السيرة النبوية ١/ ٢٢٥ .

(٤) مجموع الفتاوى ١٦/ ٣٤٨ .

(٥) سورة النور : الآية ٣٥ .

وليست هنالك من طريق للمحافظة على هذه الفطرة ، وإرشادها سوى اتباع وحي الله، والسير وفق منهجه الرباني، قال الله تعالى :﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ** ﴾ (١) ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : « أجار الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يَشْقَى في الآخرة ، ثم قرأ ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ** ﴾ ، قال: لا يضل في الدنيا ولا يَشْقَى في الآخرة » (٢) .

الخاتمة

وفي خاتمة هذا البحث يمكننا أن نخلص إلى النتائج التالية:

١ – أن معرفة الله مركوزة في فطرة هذا الوجود كله ، والإنسان جزء منه .

٢ – أن هذه المعرفة الفطرية لدى الناس تفسدها مؤثرات كثيرة منها الشياطين والمجتمع ، والأهواء .

٣ – الفطرة إن ضلت طريقها تتجه إلى الشرك لا إلى الإلحاد، وسبب تحول أوربا إلى الإلحاد أخطاء الكنيسة ومنها محاربتها للعلم والعلماء مما أدى بفئة من العلماء إلى الإلحاد ، واستغل اليهود هذه الأحداث فركبوا الموجة إلى نهايتها ، ونفذوا كل ما في جعبتهم من مخططات الإفساد في الأرض لاستحمار الأمميين ، واستعبادهم لصالح الشعب الشرير .

٤ – الفطرة في أصل خلقتها غير تامة ، ولا يمكن إتمام هذا النقص إلا بالوحي الإلهي ، وليست هنالك من طريق للمحافظة على الفطرة إلا بالسير وفق منهج الله تعالى .

٥ – أول واجب على الإنسان هو النطق بالشهادتين ، إلا من فسدت فطرته فأول واجب في حقه النظر .

٦ – هذه المعرفة الفطرية غيركافية للدخول في الإسلام إذ لا بد من النطق بالشهادتين والإيمان .

تم بحمد الله

---

(١) سورة طه : الآية ١٢٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ رقم (١٣٥٦١) ، ٧/٢٤٣ – ٢٤٣٩ .

فهرس المراجع

١ – اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن قيم الجوزية ، تحقيق عواد عبد الله المعتق ، طبعة الرياض (١٤٠٨ هـ / ١٩٩٨ م) .

٢ – الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، نشر مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت ، (١٤٠٧هـ١٩٨٧م) .

٣ – أضواء البيان في إيضاح القرآ ن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي – الرياض: المطابع الأهلية ، (١٤٠٣هـ) .

٤ – البداية والنهاية لابن كثير ، ط٢ – بيروت: مكتبة المعارف ، (١٤١١هـ / ١٩٩٠م) .

٥ – تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي . بيروت : دار مكتبة الحياة، (د ت) .

٦ – تحفة المريد على حاشية جوهرة التوحيدلإبراهيم البيجوري . القاهرة : المطبعة العلمية ، (١٣١٥هـ) .

٧ – التعريفات لعلي بن محمد بن علي المعروف بالجرجاني ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الريان بالقاهرة (١٤٠٣ هـ) .

٨ – تعريف عام بدين الإسلام لعلي الطنطاوي ، ط١٢ . بيروت : دار الوفاء ، (١٤٠٨هـ) .

٩ – تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن/محمد بن جرير الطبري . بيروت : دار الكتب العلمية ، (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) .

١٠ – تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب/فخر الدين محمد بن عمر الرازي قدم له خليل محيي الدين الميس، طبعة جديدة مزيدة بفهارس فنية كاملة . بيروت : دار الفكر ، (١٤١٤هـ– ١٩٩٣م) .

١١ – تفسير القرآن العظيم لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، طبعة جديدة مصححة ومنقّحة ، ومضبوطة بالشكل . دمشق : دارابن كثير ، (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) .

١٢ – تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين للإمام عبد الرحمن بن

محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم ، تحقيق أسعد محمد الطيب . مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز ، (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) .

١٢ – التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري الأندلسي ، حققه وعلق عليه وصححه مصطفى بن أحمد العلوي ، ومحمد عبد الكبير البكري ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب ، ط ٢ ، (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) .

١٣ – جامع الرسائل لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، المؤسسة السعودية بالقاهرة (١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م) .

١٤ – الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، تحقيق أحمد شاكر ، ط٢ – القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) .

١٥ – الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتب المصرية (١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م) .

١٦ – الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة لأبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني ، تحقيق محمد بن ربيع بن هادي عمر المدخلي . – الرياض : دار الراية ، (١٤١١هـ – ١٩٩٠م) .

١٧ – حكم ابن عطاء الله بشرح الشيخ زروق ، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ، القاهرة : مطابع دار الشعب .

١٨ – درء تعارض العقل والنقل لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم . الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) .

١٩ – الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان لمحمد عبد الله دراز ـ الكويت : دار القلم (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) .

٢٠ – رسالة في السماع والرقص والكلام على حديث يولد المولود على الفطرة لمحمد بن محمد المنبجي الحنبلي ، ضمن كتاب (مجموعة الرسائل المنيرية) الجزء الثالث ، دار إحياء التراث

العربي ببيروت (مصورة عن الطبعة الأولى المنيرية ١٣٤٣ هـ) .

٢١ – الروح لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية ، تحقيق ودراسة السيد الجميلي . بيروت : دار الكتاب العربي ، (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) .

٢٢ – الزهد لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني . بيروت : دار الكتب العلمية (١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م) .

٢٣ – السنن لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، دراسة وفهرسة كمال يوسف الحوت . بيروت : دار الجنان ، ومؤسسة الكتب الثقافية ، الطبعة الأولى (١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م) .

٢٤ – السيرة النبوية لابن هشام ، حققها مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، (د ن) و (د ت) .

٢٥ – شرح العقيدة الطحاوية لعلي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي ، حققه عبد الله بن عبد المحسن التركي ، وشعيب الأرناؤوط . بيروت : مؤسسة الرسالة ، (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) .

٢٦ – شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيم الجوزية . بيروت دار المعرفة ، (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) .

٢٧ – صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي . استانبول : المكتبة الإسلامية ، (١٩٧٩م) .

٢٨ – صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . الرياض : رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد ، (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) .

٢٩ – صحيح مسلم بشرح النووي ، الرياض : رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، (١٤٠٨هـ / ١٩٨١م) .

٣٠ – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الشهير بابن قيم الجوزية ، حققه : علي بن محمد الدخيل الله – الرياض : دار العاصمة (١٤٠٨هـ) .

٣١ – طبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، تحقيق عبد الفتاح

حلو ، ومحمود محمد الطناحي . القاهرة مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى (١٣٨٣ – ١٩٦٤ م) .

٣٢ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، أحمد ابن علي بن حجر ، قرأ أصله تصحيحاً وتحقيقاً عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، رقم كتبه وأبوابه محمد فؤاد عبد الباقي ، أشرف على طبعه محب الدين الخطيب . الرياض : رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، (د ت) .

٣٣ – في ظلال القرآن لسيد قطب ، ط ٧ . بيروت : دار الشروق ، (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) .

٣٤ – القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة ، طبعة فنية مرقمة مصححة ، ط ٢ . بيروت : مؤسسة الرسالة (١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م) .

٣٥ – كانط لأوفي شولتز ، ترجمة سعد رزوق . بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (١٩٧٥م) .

٣٦ – الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لأبي الوليد محمد بن رشد ، ط ٢ . دار الآفاق الجديدة ، (د ت) .

٣٧ – الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، تحقيق عدنان درويش ، ومحمد المصري ، ط ٢ . بيروت : مؤسسة الرسالة ، (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) .

٣٨ – مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم : دمشق : دار القلم ، (١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) .

٣٩ – مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي النجدي وابنه . الرياض دار الإفتاء (طبعة مصورة) ، (١٣٩٨هـ) .

٤٠ – مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لعثمان جمعة ضميرية . جدة : مكتبة السوادي ، (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) .

٤١ – مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ، ط ١٦ ، القاهرة : دار الشروق ، (١٤١٢هـ /

١٩٩٢م) .

٤٢ – المستدرك على الصحيحين في الحديث لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري ، الرياض : مكتبة مطابع النصر الحديثة ، (د ت) .

٤٣ – مسند الإمام أحمد بن حنبل ، بيروت : دار صادر ، (د ت) .

٤٤ – معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، (١٣٦٦هـ) .

٤٥ – المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني . بيروت : دار المعرفة ، (د ت) .

٤٦ – مقومات التصور الإسلامي لسيد قطب ، دار الشروق بالقاهرة .

٤٧ – موسوعة الفلسفة لعبد الرحمن بدوي . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر (١٩٨٤م) .

٤٨ – المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذي العزةوالجلال لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، حققه وقدم له الدكتور جميل صليبا ود. كامل عواد . ط١١ . بيروت : دار الأندلس ، (١٩٨٣م) .

٤٩ – نظرية الواجب الأخلاقي عند كانط دراسة ونقد لأحمد معاذ علوان حقي ، رسالة ماجستير ، مخطوطة ، نوقشت سنة (١٤٠٧ هـ) .

٥٠ – النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري الشهير بابن الأثير ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود الطناحي . بيروت : المكتبة العلمية ، (د ت) .

